الموقف السني المعاصر من مفهوم الفناء

إعداد الباحث

أحمد على كامل موسى

باحث قسم الفلسفة كلية الآداب – جامعة العريش

إصدار يوليو لسنة ٢٠٢١م

شعبة الدراسات النفسية والإجتماعية

الموقف السني المعاصر من مفهوم الفناء

ويمثل هذا الإتجاه الدكتور مصطفى حلمي، أستاذ العقيدة والفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم جامعة القاهرة.

وسوف نتناول خلال هذا المبحث الإتجاه السني للدكتور مصطفى حلمي من الفناء، حيث يفرق بين الفناء في التصوف السني والتصوف الفلسفي ، ويبين ما هو مقبول وما هو مردود.

أولًا: موقف الدكتور مصطفى حلمي من نظرية الحلول:

يرى الدكتور مصطفى حلمي أن الحلاج لم يكن أول من نادى بفكرة الحلول، بل سبقه إلى ذلك فرقة السبئية من غلاة الفرق الشيعية، والتي قالت أن عليًا صار إلهًا بحلول الإله فيه، يقول عبدالقاهر البغدادي: "الحلولية في الجملة عشر فرق كلها كانت في دولة الاسلام وغرض جميعها القصد الى إفساد القول بتوحيد الصانع وتفضيل فرقها في الاكثر يرجع الى غلاة الروافض"[(١)]، ثم يسترسل في ذكر أسماء فرقهم، ويذكر منهم الحلاجيه الذين ينسبون الى الحسين بن منصور المعروف بالحلاج[(٢)]، كما يستدل الدكتور مصطفى حلمي بما ذهب إليه المقدسي من القول بأنهم يؤمنون بروح القدس وأنها كانت في النبي كما كانت في عيسى ثم انتقلت إلى على ثم إلى الحسن ثم إلى الحسين ثم كذلك في الأئمة ولذلك هم أنوار من نور الله تعالى وأبعاض من أبعاضه وهذا مذهب الحلّاجيّة[(٣)] .

---

(١) الفرق بين الفرق، ص٢٤١.

(٢) ابن تيمية والتصوف، ص٢٢١.

(٣) المقدسي،البدء والتاريخ (٥/ ١٢٩).

كما يرى الدكتور مصطفى حلمي مدى التشابه بين حركة القرامطة والحلاجية، فقد كان رأس القرامطة يظهر الزهد والتقشف، ويسف الخوص، ويأكل من كسبه، ويكثر الصلاة، فأقام على ذلك مدة، فكان إذا قعد إليه إنسان ذاكره أمر الدين، وزهده في الدنيا، وأعلمه أن الصلاة المفترضه على الناس خمسون صلاة في كل يوم وليلة، حتى فشا ذلك عنه بموضعه، ثم أعلمهم أنه يدعو إلى إمام من أهل بيت الرسولﷺ[٤].

كما يذكر المسعودي أنه أتي بجماعة من القرامطة من ناحية الكوفة، منهم المعروف بأبي الفواس، ثم يستطرد في شرح كيفية قطع يديه ورجليه وصلبه، مما جعل أهل بغداد يفتنون به، ويذيعون الأراجيف حول مقتله، وأشاعت العامة أنه قال لمن حضر قتله من العوام: هذه عمامتي تكون قبلك، فإني راجع بعد أربعين يومًا، كما فعل بالحلاج فقد قطعت يداه ورجلاه وضربت عنقه.[٥]

ولما دخل بغداد كانوا ينادون عليه هذا داعي القرامطة، وكان يظهر للشيعة أنه منهم، ودخل على ابن نوبخت رئيس الشيعة ليتبعه فطالبه بكرامات عجز عنها[٦].

كذلك يرى بعد دراسته لمذهب الحلاج من خلال كتبه لاسيما كتاب الطواسين أن مذهبه يمثل إرهاصات مذهب وحدة الوجود لابن عربي بعده، وذلك من ظهور الإصطلاحات الغامضة فيه، وأفكار الحلول التي يلبسها أثوابًا من الرموز. حيث يقول

---

(٤) الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير، تاريخ الطبري، دار التراث– بيروت، الطبعة الثانية ١٣٨٧هـ، (٢٣/١٠).

(٥) ابن تيمية والتصوف،مصطفى حلمي، ص٢٢٣-٢٢٤.

(٦) ابن تيمية: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ،شرح العقيدة الأصفهانية، المحقق: محمد بن رياض الأحمد، المكتبة العصرية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ، ص٧٤.

الحلاج: "ياأيها الظان لا تحسب أني أنا الآن ، أو يكون أو كان، إن كنت تفهم فافهم، ما صحت هذه المعاني لأحد سوى أحمد"[٧].

ويقول: "والحقيقة خليقة، دع الحقيقة لتكون أنت هو، أو هو أنت من حيث الحقيقة"[٨]. ويتخلل الوجود في شكل دوائر، معظمًا من شأن الدائرة – وتابعه في ذلك ابن عربي – ثم يقلد الأسلوب القرآني في محاولة ظاهرة السذاجة في مثل قوله: "كلا لا وزر إلى ربك يومئذٍ المستقر ينبأ الإنسان يومئذٍ بما قدم وأخر يفوت إلى الخبر. . فر إلى الوزر . . خاف من الشرر . إغتر وغرر. رأيت طيرًا من طيور الصوفية؛ عليه جناحان، وأنكر شأني حين بقي على الطيران، فسألني عن الصفاء فقلت له: إقطع جناحك بنقرات الفناء، وإلا فلا تتبعنى . . فقال: بجناحي أطيرُ إلى الفناء. فقلت لهُ: ويحك !! ليس كمثلهِ شيء وهو السميع البصير، فوقع حينئذٍ في بحر الفهم، وغرق[٩].

إلى جانب نظريته الخطيرة في فتوة ابليس التي ضمنها كتابه، فيصفه بأنه "وما كان في السماء موحد مثل ابليس ... ثم دفاعه عن فرعون بإصرار واتخاذه منهما –أي ابليس وفرعون– أستاذين له "فصاحبي وأستاذي إبليس وفرعون، وإبليس هُدِدَ بالنار، وما رجع عن دعواه، وفرعون أُغرق في اليم، وما رجع عن دعواه، ولم يقر بالواسطة البتة، وإن قتلت أو صلبت أو قطعت يداي ورجلاي ما رجعت عن دعواي"[١٠].

وستلقى هذه النظرية رعاية تامة بواسطة ابن عربي[١١].

---

(٧) الطواسين، للحلاج ص١٨.

(٨) المصدر نفسه، ص٢٣.

(٩) الطواسين، للحلاج، ص٣٠.

(١٠) المصدر نفسه، ص٥١–٥٢.

(١١) ابن تيمية والتصوف، ص٢٢١–٢٤٢ مختصرًا.

ويخلص من ذلك أن الحلاج كان من أوائل دعاة الباطنية في التدرج بالدعوة من درجة إلى أخرى، واستخدام الرموز في مخاطبة الأتباع. كما ادعى لنفسه أنه هو الإمام المنتظر، وهذا من ملامح الإتجاه الشيعي المتطرف.

والخلاصة أن الدكتور مصطفى حلمي يرى أن الحلاج يتبنى إتجاهًا معارضًا للإتجاه السني، متخذًا بعض العبادات من أجل أن يلبس بها على الناس فيقول: "والحق إنه بعد دراسته مقترنًا بهذه العوامل، يتضح انتماؤه لتيار عام معارض للإتجاه السني، ومعادٍ لسلطان الدولة العباسية، واتخذ من مظاهر الزهد والتقشف والغلو في العبادات تكأة في سبيل الهدف الأساسي مع ملاحظة إننا إزاء عصره لا يفصل فيه بين الدين والدولة"(١٢).

ثم يتعجب الدكتور مصطفى حلمي من موقف المستشرق ماسينيون من مدحه للحلاج، حيث بالغ ماسينيون بإعجابه الشديد بالحلاج وفكره واستشهاده، في الوقت الذي أهمل فيه النظر إلى ممثلي الإسلام الحقيقين بعد رسول الله ﷺ، وهم الصحابة ومن بعدهم من التابعين المتمسكين بالمنهج الإسلامي الصحيح. كما أن المسلمين لا يقرون أصلًا بفكرة الصلب المسيحية. فالمستشرق ماسينيون لم يكن منصفًا في تحليلاته خاصة فيما يتعلق بالإسلام بسبب إرتباطه الوثيق بالأب شارل دي فوكو الراهب، وتأثره بإتجاهاته الدينية، فيقول: "لم يكن ماسينيون باحثًا محايدًا على الإطلاق. إنه كاتب كاثوليكي معاصر، ينتمي إلى مجموعة من الكتاب الفرنسيين المعاصرين، حاولوا إضفاء نوع من الرومانتيكية على العقيدة الكاثوليكية واستخدم هو في كتابته "قصة الحلاج: أو أسطورة الحلاج ملونة بلون خاص"(١٣).

كما يستدل الدكتور مصطفى حلمي على صحة موقفه من الحلاج بكل من المنهج العلمي، والمنهج الكلامي، وكذلك منهج المحدثين.

---

(١٢) ابن تيمية والتصوف، ص٢٢٥.

(١٣) المصدر نفسه، ص٢٣١.

أما المنهج العلمي، فقد نقل عن البيروني بمنهجه العلمي الدقيق أنه أخضع آراء الحلاج وتعاليمه وأفعاله للملاحظة والإستقراء، ولم يجد بدًا من وضعه في إطار المتنبئين، حيث وصفه بعد دراسة أحواله وحيله بأنه "كان رجلًا مشعوذًا ومتصنعًا مازجًا نفسه بكل إنسان حسب إعتقاده ومذهبه، ثم ادعى حلول روح القدس فيه، وتسمى بالإله"[١٤].

وأما المنهج الكلامي، فقد استدل بما ذهب إليه الباقلاني حيث تمكن من فحص أفعال الحلاج بعين النظر العقلي، وأخضعه لمقاييس الفكر والنظر، فأدخله في دائرة المشعوذيين، وأصحاب النيرنجات، وقد سبقه الجبائى المعتزلي، وكان معاصرًا للحلاج، فدحض أفعاله وجعلها من باب الحيل والخداع، فنصح المفتونين به أن يدعوه للخروج من بيته ودخول بيت أحدهم وإخراج الفواكه والأسماك وما شابه ذلك منه، فقال لهم: "هذه الأشياء محفوظة في منازل يمكن الحيل فيها، ولكن أدخلوه بيتا من بيوتكم لا من منزله هو، وكلفوه أن يخرج منه جرزتين شوكًا فإن فعل فصدقوه، فبلغ الحلاج قوله وأن قومًا قد عملوا على ذلك فخرج عن الأهواز"[١٥].

وأما منهج المحدثين، فقد استدل بما ذهب إليه شيخ الإسلام ابن تيمية لما سئل عن الحلاج، هل كان وليًا لله متقيًا له، أم كان له حال رحماني، أو من أهل السحر والخزعبلات؟

فأجاب بقوله "لم يكن من أولياء الله المتقين، بل كان له عبادات ورياضات ومجاهدات، بعضها شيطاني، وبعضها نفساني، وبعضها موافق للشريعة من وجه دون وجه، فلبس الحق بالباطل"[١٦].

---

(١٤) المصدر نفسه، ص٢٣٥.

(١٥) تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي،(٨/ ١٢٢).

(١٦) جامع الرسائل والمسائل، لابن تيمية،(١٨٧/١).

كما يرى أن الأفعال التي كان يقوم بها من قبيل السحر الذي تعلمه لما ذهب إلى بلاد الهند ، وصنف كتابًا في السحر.

أما ما ذكر من كرامات تنسب للحلاج عند موته، فكلها من قبيل الكذب المحض، وقد ذكر منها أن دمه كتب على الأرض اسم الله،وأن دجلة انقطع ماؤها، و غير ذلك، فكل ذلك كذب، وهذه الأمور لا يحكيها إلا جاهل أو منافق، وإنما وضعها الزنادقة وأعداء الإسلام، حتى يقول قائلهم: إن شرع محمد بن عبد الله يقتل أولياء الله حين يسمعون أمثال هذه الهذيانات، وإلا فقد قُتل أنبياء كثيرون وقُتل من أصحابهم وأصحاب نبينا ﷺ، والتابعين وغيرهم من الصالحين من لا يحصي عددهم إلا الله، قتلوا بسيوف الفجار والكفار والظلمة وغيرهم ولم يكتب دم أحدهم اسم الله، "ثم إن الدم أيضا نجس فلا يجوز أن يكتب اسم الله تعالى؛ فهل الحلاج خير من هؤلاء، ودمه أطهر من دمائهم؟!"[١٧].

وقد استدل ابن تيمية بقول النبيﷺ: "لا تقوم الساعة حتى يكون فيكم ثلاثون دجالون كذابون كلهم يزعم أنه رسول الله"[١٨]، ثم يذكر هؤلاء الدجاجلة، وعلى رأسهم الدجال الكبير الذي يقتله عيسي بن مريم عليه السلام، ودونه دجاجلة: منهم من يدعي النبوة، ومنهم من يكذب بغير ادعاء النبوة، وذكر من بينهم الحلاج فقال: "فالحلاج كان من الدجاجلة بلا ريب"[١٩].

فالأصل الذي ينبغي أن نسير عليه للتفريق بين كرامات الأولياء حقًا وبين أحوال السحرة والمشعوذين رد أعمالهم إلى الكتاب والسنة "فكلما بعدوا عن الله ورسوله ﷺ وطريق المؤمنين قربوا من الشيطان"[٢٠].

---

(١٧) جامع الرسائل والمسائل، لابن تيمية،(١/١٩٠).

(١٨) المصدر نفسه،(١/١٩٧).

(١٩) المصدر نفسه،(١/١٩٩).

(٢٠) المصدر نفسه،(١/١٩٦).

بينما يرى الدكتور مصطفى حلمي أن منهج المتصوفة –منهج الذوق والسلوك – قد التبس عليه الأمر، لأنه منهج غير واضح المعالم، غير محدد الخطوط، وليس له أسس موضوعية تتفق مع المنهج العلمي، بل هو يخضع للتجارب الشخصية، ويتسم بالطابع الفردي، ولهذا اختلفت آراء الصوفية فيه[٢١] . فمنهم من اعتبره عالمًا ربانيًا، ومنهم من نسبه إلى الشعبذة في أفعاله وتصرفاته، ونسبه إلى الزنادقة.

فالإمام القشيري –مؤرخ الصوفية– لم يذكره في رسالته، مما يدل على إعتباره خارج دائرة التصوف السني. كذلك لم يدرجه أبو طالب المكي في كتابه "قوت القلوب"، بل تجاهله تمامًا، أما الطوسي فقد أفرد له فصلًا خاصًا في "اللمع للطوسي"لدحض نظرية الحلول، بينما وصف أبو نعيم الحلولية في كتاب "حلية الأولياء" بالكفر.

أما ما ذكره الحلاج من أقوال مثل "كن مع الحق بحكم ما أوجب"، والتي يفهم منها العمل بما شرع الله تعالى، وبقوله "عليك بنفسك إن لم تشغلها بالحق، شغلتك عن الحق"[٢٢]، وهذا يعني دوام ذكر الله تعالى، وهذه معاني صحيحة، فيرى الدكتور مصطفى حلمي أن هذا يعد من قبيل الخداع لأهل السنة، لأن أحواله وأفعاله تدل على تحوله إلى البدع والضلالات، وأنه لم يتبع التنزيل، ولم يستقم أمره على شرع الله تعالى.

كما يرى أن من الضروري أيضًا ألا نعد كلام الحلاج من قبيل الشطحات التي تظهر في حالات الوجد، كالعبارة المنسوبة لأبي يزيد البسطامي، ذلك لأن الحلاج كتب وهو حاضر يقظان[٢٣].

---

(٢١) ابن تيمية والتصوف، مصطفى حلمي، ص٢٣٢

(٢٢) تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي،(٨/ ١١٤)

(٢٣) ابن تيمية والتصوف،ص٢٤٠.

ثانيًا: موقف الدكتور مصطفى حلمي من مذهب وحدة الوجود:

يرى الدكتور مصطفى حلمي أن أبرز الأسس التي قام عليها مذهب وحدة الوجود –كما وضعه ابن عربي– هو أن العالم كله بمثابة شبح لا روح فيه، أو كالمرآة القابلة للصور، ويصبح ذلك عملية الخلق عنده فيضًا دائمًا. وحتى لا يقر بالإثنينية، فإنه جعل العالم يفتقر إلى الحق في وجوده لأنه يسري في الموجودات بالصور. وبالمثل فإن الحق مفتقر إلى الأعيان الثابتة، وهي أشبه بالصور الأفلاطونية[٢٤].

يقول ابن عربي:

الرب حق والعبدحق *** ياليت شعري من المكلف؟

إن قلت عبد فذاك ميت *** أو قلت رب، أنى يكلف؟[٢٥]

وهذا القول من ابن عربي إنما يدل دلالة واضحة عن مذهب وحدة الوجود.

كما يرى الدكتور مصطفى حلمي أن من الأخطاء الواضحة التي وقع فيها ابن عربي أنه وصف الله تعالى بالفقر إلى الأعيان الثابتة، وأصبح علمه مستفادًا منها وكأنها غنية في ثبوتها عنه، فأنكر ما كان يعتقده المسلمون من كون الله عالم بالأشياء قبل كونها بعلمه القديم الأزلي، الذي من لوازم نفسه المقدسة[٢٦].

كما يرى أن ما ذهب إليه ابن عربي يهدم المبادىء الإسلامية، وما هو معلوم من الدين بالضرورة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، نشأ عن مذهبه هذا "جبرية صارمة هيمنت على الوجود كله، وتعطلت معها إرادة الإنسان وتوقف تفكيره، وامتنعت

---

(٢٤) ابن تيمية والتصوف،ص٢٩٧.

(٢٥) الفتوحات المكية، (٢/١).

(٢٦) ابن تيمية والتصوف، ص٢٩٧.

التفرقة بين الخير والشر، والتمييز بين الثواب والعقاب وسقطت قيمة الإلزام الخلقي، وارتفعت المسئولية الأخلاقية بزوال ركنيها الأساسيين: العقل وحرية الاختيار"[٢٧].

وقد أنكر الدكتور مصطفى حلمي على ابن عربي ثلاث مسائل تمس جوهر العقيدة الإسلامية متأسيًا في ذلك بشيخ الإسلام ابن تيمية، فيقول: "بيد أن المسائل الثلاثة التي أثارت غضب شيخ الإسلام لمساسها بالعقيدة في جوهرها هي:

أولًا: مسألة الألوهية والعبادة:

حيث يدور مذهب وحدة الوجود إلى أن الوجود واحد، ومن ثم فإن عبادة موسى للعجل هي عبادة لله أيضًا، ويساوي بين عبادة الأصنام وعبادة الله.

يقول ابن عربي:

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي *** إذا لم يكن ديني إلى دينه داني
لقد صارَ قلبي قابلاً كلَ صُورةٍ *** فمرعىً لغزلانٍ ودَيرٌ لرُهبانِ
وبيتٌ لأوثـانٍ وكعبـةُ طائـفٍ *** وألواحُ توراةٍ ومصحفُ قـرآن
أدينُ بدينِ الحـبِ أنّـى توجهتْ *** ركائبهُ ، فالحبُ ديني وإيمَانـي[٢٨]

ويقول أيضًا : "فإن العارف من يرى الحق في كل شيء، بل يراه عين كل شيء"[٢٩].

ثانيًا: مسألة تفضيل الولي على النبي:

لم يقتصر القوم على مثل هذه السخافات والأباطيل، بل زادوا في غلوهم حيث فضلوا الولاية على النبوة والرسالة، والأولياء على الأنبياء والمرسلين، فيقول ابن عربي: "إن الولاية هي المحيطة العامة، وهي الدائرة الكبرى، فمن حكمها

---

(٢٧) المصدر نفسه، ص٢٩٨.

(٢٨) ابن عربي: ترجمان الأشواق، ص٤٣-٤٤.

(٢٩) الفصوص، ص١٩٢.

أن يتولى الله من شاء من عباده بنبوة وهي من أحكام الولاية، وقد يتولاه بالرسالة وهي من أحكام الولاية أيضًا. فكل رسول لابد أن يكون نبيًا، وكل نبيّ لابد أن يكون وليًا، فكل رسول لابد أن يكون وليًا"[٣٠] .

ويقول أيضًا: "أن الولي يعلم علمين: علم الشريعة، وعلم الحقيقة، أي الظاهر والباطن، والتنزيل والتأويل، حيث أن الرسول من حيث هو رسول ليس له علم إلا بالظاهر والتنزيل والشريعة. فإذا رأيت النبي يتكلم بكلام خارج عن التشريع فمن حيث هو وليّ عارف، ولهذا مقامه من حيث هو عارف أتمّ وأكمل من حيث هو رسول أو ذو تشريع وشرع. وأن النبي والرسول يستمدّ العلم والمعرفة من الملك الذي يبلغه الوحي الإلهي بواسطته، ولا يمكنه الأخذ من الله مباشرة، والوليّ يستمد المعرفة من حيث يأخذها الملك الذي يؤدي بدوره إلى الأنبياء والرسل فمرجع الرسول والنبي المشرع إلى الولاية والعلم"[٣١].

فهذه هي عقيدته في الأولياء، والولاية، وهي عين العقيدة الشيعية الشنيعة والتي تتضمن تفضيل الأولياء على أنبياء الله ورسله. فإن الولي عندهم فوق الرسول والنبي، ودون الله قليلا، وأحيانا يحذفون هذا الفرق البسيط أيضًا بينه وبين الله، ويجعلونه ذات الله وعينه.

فلا أدري كيف يدافع من يدافع عن ابن عربي بأنه لا يفضل الولي على النبي، وبعد هذه التصريحات كلها ؟ حيث يجعل خاتم الأولياء منبع العلوم، ومصدر الفيض لجميع الأنبياء والرسل، وأنهم لا يستمدون إلا منه، و لا يستقون إلا من ذلك المنهل والمورد، ولا يستضيئون إلا من مشكاته.

---

(٣٠) الفتوحات المكية، (٢/ ٢٥٦ – ٢٥٧).

(٣١) الفصوص، ص١٣٥ بتصرف.

ثالثًا: النظرية الجبرية:

تدور النظرية الجبرية عند ابن عربي "حول نفي حكمة الرب الثابتة في خلقه وأمره، وما كتبه على نفسه من الرحمة، وما حرمه على نفسه من الظلم، وما جعله للمخلوقات والمشروعات من الأسباب التي شهد بها النص مع العقل والحسن، واتفق عليها سلف الأمة وأئمة الدين"[٣٢].

ويقول ابن عربي:

الحكم حكم الجبر والاضطرار *** ما ثم حكم يقتضي الاختيار

إلا الذي يُعزى إلينا ففي *** ظاهره بأنه عن خيار

لو فكر الناظر فيه رأى *** بأنه المختار عن اضطرار[٣٣]

ويقول ابن عربي في موضع آخر:

أنا مجبور ولا فعل لي *** فالذي أفعله باضطرار

والذي أسند فعلي له *** ليس في أفعاله بالخيار

أنا إن قلت أنا قال لا *** وهو إن قال أنا لم يغار

فأنا وهو على نقطة *** ثبتت ليس لها من قرار

(٣٤)

فالنظرية الجبرية التي اعتنقها أصحاب وحدة الوجود أدت بهم إلى الإنحدار والتأخر وتكالب الأمم عليهم،لأنه مادامت فكرة الجبر هي السائدة فلا مجال للأفعال أو التمسك بالأسباب، ومن ثم تدهورت أحوال المسلمين بسبب مخالفتهم لأصول العقائد الإسلامية الصحيحة.

---

(٣٢) جواب أهل العلم، ص١٧٨.

(٣٣) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة (٢/ ٧٨٤-٧٨٥).

(٣٤) ابن عربي: رسائل ابن عربي(الرسالة رقم ٤)، ص١٢، ط الهند ١٩٨٣م.

ويحسن بنا في هذا المقام التفريق بين الإرادة الكونية القدرية، والإرادة الدينية الشرعية.

فالإرادة الكونية القدرية تعني: مشيئة الله تعالى الشاملة لجميع الحوادث؛ فهي تتعلق بكل ما يشاء الله تعالى فعله وإحداثه، سواء أحبَّه أو لم يرضه من الكفر والمعاصي.

وأما الإرادة الدينية الشرعية تعني: إرادة الله تعالى المتضمنة للمحبة والرضا، فهي تتعلق بكل ما يأمر الله تعالى به عباده ممَّا يحبُّه ويرضاه[٣٥].

إذن الفرق بين الإرادتين أن الإرادة الكونية لا بد فيها من وقوع ما أراده الله تعالى، ولا يلزم أن يكون هذا الأمر الواقع محبوبًا عند الله تعالى، وأما الإرادة الشرعية، فلا بد أن يكون المراد فيها محبوبًا لله، ولكن لا يلزم وقوعه، فقد يقع المراد، وقد لا يقع. والإرادة الكونية تجتمع مع الإرادة الشرعية في مثل إيمان المؤمن وطاعة المطيع، وتنفرد الإرادة الكونية في مثل كفر الكافر، ومعصية العاصي، وتنفرد الإرادة الشرعية في مثل إيمان الكافر وطاعة العاصي[٣٦].

أما منشأ الخطأ عندهم فقد جاء من الخلط بين الإرادة الكونية والإرادة الشرعية، فقد جعلوا المراتب ثلاثة: فالعبد عندهم يشهد أولا طاعة ومعصية، ثم طاعة بلا معصية، ثم لا طاعة ولا معصية.

أما الأول، فهو الشهود الصحيح، وهو الفرق بين الطاعات والمعاصي.

وأما الشهود الثاني، فيريدون به شهود القدر، وهي من المسائل التي اشتبهت على طائفة من الصوفية، فبينها الجنيد رحمه الله لهم، فمن اتبع الجنيد فيها كان على السداد، ومن خالفه ضل، لأنهم تكلموا بأن الأمور كلها بمشيئة الله وقدرته، وهذا يسمونه الجمع الأول، فبين لهم الجنيد أنه لا بد من شهود الفرق الثاني، وهو أنه مع شهود كون الأشياء كلها مشتركة في مشيئة الله وقدرته وخلقه، يجب الفرق بين ما

---

(٣٥) مجموع فتاوى ابن تيمية، (١١/ ٢٦٦).

(٣٦) ابن أبي العز الحنفي: شرح العقيدة الطحاوية، (٦٨/١).

يأمر به ويحبه ويرضاه، وبين ما ينهى عنه ويكره ويسخطه، ويفرق بين أوليائه وأعدائه.

وأما المرتبة الثالثة: أن لا يشهد طاعة ولا معصية، فإنه يرى أن الوجود واحد، وعندهم أن هذا غاية التحقيق والولاية لله، وهو في الحقيقة غاية الالحاد في أسماء الله وآياته، وغاية العداوة لله، فإن صاحب هذا المشهد يتخذ اليهود والنصارى وسائر الكفار أولياء، وقد قال تعالى: {وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ} [المائدة: ٥١]، ولا يتبرأ من الشرك والأوثان[٣٧] .

ثالثًا: موقف الدكتور مصطفى حلمي من مذهب الفناء:

يرى الدكتور مصطفى حلمي أن الفناء من أخطر النظريات التي تعرض لها الصوفية وأدخلوها في مقاماتهم، فقد دار حول هذا المقام أصحاب وحدة الوجود، وأقاموا عليه مذهبهم، كما جذب اهتمام أهل السنة من الصوفية وأمعنوا النظر فيه وتحليله، واستخدموا مصطلحات الجمع والفرق والسكر..الخ. وقد فرضت هذه الخواطر النفسية العميقة نفسها على علماء الإسلام[٣٨].

على أنه من الناحية التاريخية مقارنة بالسلف الصالح، فإن أكابر الصحابة كأبي بكر وعمر والمهاجرين والأنصار لم يقعوا في الفناء الذي اختلط معناه عند الصوفية المتأخرين، ويعني به مقام الفناء الذي يحدث في غيبة العقل بحيث لا يميز الصوفي بين ما يرد على القلب من أحوال الإيمان ويضطرب في تمييزه فيظن أنه محبوبه. وعلى هذا فإن عصر الصحابة كان خاليًا من أحاسيس وخواطر الغثيان، أو الطعن، أو السكر، أو الفناء، أو الوله، أو الجنون[٣٩]. بينما ترجع نشأة هذه الظواهر

---

(٣٧) ابن تيمية: الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان،ص١١٦-١١٨بتصرف.

(٣٨) ابن تيمية والتصوف، ص٣٩٢.

(٣٩) المصدر نفسه، ص٣٩٣.

إلى بعض التابعين من عباد البصرة "فإنه كان فيهم من يغشى عليه إذا سمع القرآن، ومنهم من يموت كأبي جهير الضرير وزرارة بن قاضي البصرة"(٤٠).

ويذهب الدكتور مصطفى حلمي إلى ما ذهب إليه ابن تيمية من تقسيم الفناء إلى ثلاثة درجات أو أنواع:

الأول: الفناء عن إرادة ما سوى الله:

وهو فناء القلب عن إرادة ما سوى الرب، والتوكل عليه وعبادته، وما يتبع ذلك، فهذا حق صحيح وهو محض التوحيد والإخلاص، وهو في الحقيقة عبادة القلب، وتوكله، واستعانته، وتألهه وإنابته، وتوجهه إلى اللّه وحده لا شريك له، وما يتبع ذلك من المعارف والأحوال. وليس لأحد خروج عن هذا. وهذا هو القلب السليم الذي قال اللّه فيه: {إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} [الشعراء: ٨٩]، وهو سلامة القلب عن الاعتقادات الفاسدة، والإرادات الفاسدة، وما يتبع ذلك. وهذا الفناء لا ينافيه البقاء، بل يجتمع هو والبقاء فيكون العبد فانيًا عن إرادة ما سواه، وإن كان شاعرًا باللّه وبالسوى، وترجمته قول: لا إله إلا اللّه، وكان النبي ﷺ يقول "لا إله إلا اللّه، ولا نعبد إلا إياه، له النعمة، وله الفضل، وله الثناء الحسن" وهذا في الجملة هو أول الدين وآخره.

الثاني: الفناء عن شهود ما سوى الله:

وهو أن يفنى العبد عن شهود ما سوى الله، وهذا الذي يسميه كثير من الصوفية حال الاصطلام والفناء والجمع ونحو ذلك، وهذا فيه فضيلة من جهة إقبال القلب على الله، وفيه نقص من جهة عدم شهوده للأمر على ما هو عليه، فإنه إذا شهد أن الله رب كل شيء ومليكه وخالقه، وأنه المعبود لا إله إلا هو، الذي أرسل

---

(٤٠) السلوك،لابن تيمية، ص٢٢٠.

الرسل، وأنزل الكتب، وأمر بطاعته، وطاعة رسله، ونهى عن معصيته، ومعصية رسله، فشهد حقائق أسمائه وصفاته وأحكامه خلقًا وأمرًا، كان أتم معرفة وشهودًا وإيمانًا وتحقيقًا، من أن يفنى بشهود معنى عن شهود معنى آخر، وشهود التفرقة في الجمع، والكثرة في الوحدة، وهو الشهود الصحيح المطابق، لكن إذا كان قد ورد على الإنسان ما يعجز معه عن شهود هذا وهذا كان معذورًا للعجز، لا محمودًا على النقص والجهل.

الثالث: الفناء عن وجود ما سوى الله:

بمعنى أنه يرى أن اللّه هو الوجود، وأنه لا وجود لسواه، لا به ولا بغيره، وهذا القول والحال للاتحادية الزنادقة من المتأخرين كالبلياني والتلمساني والقونوني ونحوهم الذين يجعلون الحقيقة أنه عين الموجودات وحقيقة الكائنات، وأنه لا وجود لغيره، لا بمعنى أن قيام الأشياء به ووجودها به، كما قال النبي ﷺ "أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد: "ألا كل شيء ما خلا اللّه باطل" وكما قيل في قوله: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ}[القصص: ٨٨] فإنهم لو أرادوا ذلك لكان ذلك هو الشهود الصحيح، لكنهم يريدون أنه هو عين الموجودات، فهذا كفر وضلال. ربما تمسك أصحابه بألفاظ متشابهة توجد في كلام بعض المشايخ، كما تمسك النصارى بألفاظ متشابهة تروى عن المسيح، ويرجعون إلى وجد فاسد أو قياس فاسد[٤١].

والمعنى الأول للفناء مطلوب. أما الفناء بالمعنى الثاني فهو الذي يظنه الصوفية غاية السالكين، مع أنه ليس غاية محمودة بل هو فناء الناقصين، وهو الفناء في شهود الربوبية، وهؤلاء ليس مرادهم فناء وجود ما سوى الله في الخارج، بل فناؤه عن شهودهم وحسهم، فحقيقته غيبة أحدهم عن سوى مشهوده، بل غيبته أيضا عن شهوده ونفسه، لأنه يغيب بمعبوده عن عبادته، وبمذكوره عن ذكره، وبموجوده عن

---

(٤١) مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية (١٠/ ٣٣٧-٣٤٣) بتصرف.

وجوده، وبمحبوبه عن حبه، وبمشهوده عن شهوده. أما الفناء بالمعنى الثالث فهو فناء أهل الوحدة، وقولهم فيه كفر محض.

تعقيب

من خلال دراسة هذا المبحث تبين أن الدكتور مصطفى حلمي بإتجاهه السني، يؤكد أن الفناء من أخطر النظريات التي تعرض لها الصوفية وأدخلوها في مقاماتهم، فقد دار حول هذا المقام أصحاب وحدة الوجود، وأقاموا عليه مذهبهم.

وقد أشار إلى مدى التشابه بين حركة القرامطة والحلاجية، وأن الحلاج كان من أوائل دعاة الباطنية في التدرج بالدعوة من درجة إلى أخرى، واستخدام الرموز في مخاطبة الأتباع. كما ادعى لنفسه أنه هو الإمام المنتظر، وهذا من ملامح الإتجاه الشيعي المتطرف.

كما يؤكد أن الحلاج كان يتبى إتجاهًا معارضًا للإتجاه السني، متخذًا بعض العبادات من أجل أن يلبس بها على الناس، واستدل على صحة موقفه هذا بكل من المنهج العلمي، والمنهج الكلامي، وكذلك منهج المحدثين.

كما يرى أن من الضروري أيضًا ألا نعد كلام الحلاج من قبيل الشطحات التي تظهر في حالات الوجد، كالعبارة المنسوبة لأبي يزيد البسطامي، ذلك لأن الحلاج كتب وهو حاضر يقظان.

يرى الدكتور مصطفى حلمي أن أبرز الأسس التي قام عليها مذهب وحدة الوجود –كما وضعه ابن عربي– هو أن العالم كله بمثابة شبح لا روح فيه، أو كالمرآة القابلة للصور، ويصبح ذلك عملية الخلق عنده فيضًا دائمًا. وحتى لا يقر بالإثنينية، فإنه جعل العالم يفتقر إلى الحق في وجوده لأنه يسري في الموجودات بالصور. وبالمثل فإن الحق مفتقر إلى الأعيان الثابتة.

كذلك، أن ما ذهب إليه ابن عربي يهدم المبادىء الإسلامية، وما هو معلوم من الدين بالضرورة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، نشأ عن مذهبه هذا "جبرية

صارمة هيمنت على الوجود كله، وتعطلت معها إرادة الإنسان وتوقف تفكيره، وامتنعت التفرقة بين الخير والشر، والتمييز بين الثواب والعقاب وسقطت قيمة الإلزام الخلقي، وارتفعت المسئولية الأخلاقية بزوال ركنيها الأساسيين: العقل وحرية الإختيار.

منشأ الخطأ عندهم فقد جاء من الخلط بين الإرادة الكونية والإرادة الشرعية.

وأخيرًا لم يقبل الدكتور مصطفى حلمي الفناء مطلقًا، ولم يرفضه مطلقًا، بل فرَّق بين مفهوم الفناء في التصوف السني عن مفهومه في التصوف الفلسفي.

وبالتالي فالمعنى الأول للفناء "عن إرادة ما سوى الله" مطلوب. أما الفناء بالمعنى الثاني" فناء الشهود" فهو الذي يظنه الصوفية غاية السالكين، مع أنه ليس غاية محمودة بل هو فناء الناقصين. أما الفناء بالمعنى الثالث "فناء الوجود"، فهو فناء أهل الوحدة، وقولهم فيه كفر محض.

المصادر والمراجع

١- ابن أبي العز الحنفي: شرح العقيدة الطحاوية

٢- ابن تيمية : تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم، مجموعة الرسائل والمسائل، علق عليه: السيد محمد رشيد رضا، لجنة التراث العربي

٣- ابن تيمية: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ،شرح العقيدة الأصفهانية، المحقق: محمد بن رياض الأحمد، المكتبة العصرية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ، ص٧٤.

٤- ابن تيمية: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم، الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، حققه وخرج أحاديثه: عبد القادر الأرناؤوط، مكتبة دار البيان، دمشق، ١٩٨٥ م

٥- ابن تيمية: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم، جواب أهل العلم، دار القاسم، ٢٠٠٩م

٦- ابن عربي: محي الدين، الفتوحات المكية، دار المعرفة، بيروت – لبنان،٢٠١٠م

٧- ابن عربي: محي الدين، ترجمان الأشواق، ، دار المعرفة، بيروت – لبنان

٨- الأسفراييني: أبو منصور عبد القاهر بن طاهر بن محمد بن عبد الله البغدادي التميمي، الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية، دار الآفاق الجديدة – بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٧م

٩- البغدادي: أبو بكر أحمد بن على بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب، تاريخ بغداد، دار الكتب العلمية – بيروت، دراسة وتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، الطبعة الأولى، ١٤١٧ هـ.

١٠- الجهني: مانع بن حماد، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، دار الندوة العالمية للطباعة و النشر و التوزيع – الرياض، ١٤٢٠هـ

١١- الحلاج: الحسين بن منصور، الطواسين، نشر ماسينيون، باريس١٩١٣م

١٢- حلمي: مصطفى، ابن تيمية والتصوف، دار ابن الجوزي، القاهرة، ٢٠٠٤م
١٣- الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير، تاريخ الطبري، دار التراث- بيروت، الطبعة الثانية ١٣٨٧هـ.
١٤- عفيفي: أبو العلا، التعليقات على فصوص الحكم، القاهرة، ١٩٤٦م
١٥- المقدسي: المطهر بن طاهر، البدء والتاريخ، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد .